الهدي النبوي في التربية والتعليم

جمع وإعداد

سليمان بن جاسر بن عبد الكريم الجاسر

مصدر هذه المادة :



مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فما لا شك فيه أن نهوض الأمة ورقيها معقود بصحة التعليم وجودة التربية، والمناهج الأرضية وطرائق البشر مهما أوتوا من قوة واجتمع لديهم من خبرة وثقافة فإنها تقف عاجزة عن تحقيق الكمال وبلوغ أقصى المراد المتوافق مع العقول والفطر السوية السليمة، والسبب هو

أن هذه المناهج مهما ظن فيها بلوغ الكمال فإنها –كما تقدم– تظل قاصرة، وذلك لأن واضعها قاصر العلم وقليله، ولو كان عنده علم وخبرة فإنها لا تخلو من هوىً بشري جهول، أو نظرةٍ ضيقةٍ محدودة، مع ضعف في المراقبة وهو – بلا شك – مؤثر كبير على سير العمل التعليمي والتربوي، لذا فإن من المهم التأمل في الأساليب النبوية التربوية وذلك لأمور منها:

١– أن الله بعث نبيه محمدًا ﷺ معلمًا ومزكيًا، ومبشرًا ونذيرًا كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وجاء عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا»[1]، فالحكمة من بعث النبي ﷺ أن يعلم الناس، لذا كانت حياته ﷺ كلها تربية وتعليمًا، مما جعلها غنية جدًا بالأساليب التربوية والطرائق التعليمية التي أدهشت العلماء والمثقفين فوقفوا حيالها حيارى منبهرين.

٢– أن النبي ﷺ أوتي الكمال البشري، وعصم من الخطأ الذي يقدح في تبليغه للدعوة، فأُعطي ﷺ مع أميته علمًا لا يدانيه فيه أحد من البشر، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

---

(١) رواه مسلم (١٤٧٨).

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وكلما كان علم المرء كثيراً كانت تربيته راسخةً مكينة، وإنما ضعفت التربية وذبلت زهرتها عند قوم لعدم تمكنهم العلمي، وضعف معرفتهم بشرع الله ﷻ من كتابه وسنة رسوله ﷺ وبأحوال الناس وميولهم.

٣- أن النبي ﷺ مر بمختلف الظروف والأحوال التي يمكن أن يمر بها معلم أو مرب في أي زمان ومكان؛ فما من حالة يمر بها المربي أو المعلم إلا يجدها نفسها أو مثلها أو قريبا منها في حياة النبي ﷺ، لقد عاش النبي ﷺ الفقر والغنى، والأمن والخوف، والقوة والضعف، والنصر، والهزيمة، عاش اليتم، والعزوبة، والزوجية والأبوة... فكان يتعامل مع كل مرحلة وكل حالة بما يناسبها، ولقد رعى عليه الصلاة والسلام الغنم وما من نبي إلا ورعاها، وفي ذلك حكمة بالغة، وتمرس على سياسة الناس لأن مشاربهم مختلفة، وأهواءهم متباينة، فلابد للمربي من تمرس وصبر وأناة وتحمل للأذى، الأمر الذي يكتسبه راعي الغنم مع طول إلفته، ورياضته لها.

فلابد من أخذ العظة والعبرة منها، وترسم خطاه عليه الصلاة والسلام فيها حتى تبلغ أعلى درجات الكمال في التربية والتعليم. كما زكى الله ﷻ نبيه ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

٤- وجود دعوات ضالة كانت ولازالت تنادي بضرورة نقل أسلوب التربية والتعليم من الغرب أو الشرق إلى العالم الإسلامي دون نظر إلى المبادئ والقيم والثوابت الشرعية التي تناقضها تلك الأساليب وتضادها. إننا قد نستفيد منهم في بعض الوسائل والطرائق في توصيل المعلومة – مثلًا – والتي اعتمدوا فيها على تجارب ودراسات وجهود مضنية وافقوا فيها الصواب – أحيانًا – أما أن نأخذ منهم ما نزاحم به ثوابتنا وقيمنا فلا يصح أن نختلف في رده والوقوف أمامه. إن من المحزن المبكي أن تجد دول الغرب الكافرة تدافع عن مبادئها، وتخشى على قيمها[1]، بينما ترى أهل الإسلام أهل الملة الخالدة يبقون سكوتًا صامتين، وكأن العبث بالثوابت لا يعنيهم؟

إذًا ما التربية؟ ما مفهومها في القرآن والسنة النبوية؟

(١) فانظر على سبيل المثال وليس الحصر أهل الديانة البوذية أو الهندوسية أو غيرهما من ديانات وعلى ما فيهما من خرافات لا يقرها العقل لا أحد من معتقديها يجرؤ على نقدها كركوع المرأة وأطفالها لزوجها عند خروجه من المنزل ورجوعه إليه أو إحراق الزوجة مع زوجها الميت؟! ولا أحد انتقدهم بذلك.

مفهوم التربية

عرفت التربية بتعريفات منها:

١- إصلاح الفرد وتهيئته – والجماعة تابعة له – حتى يبلغ درجة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن غيره.

٢- التنشئة على الصلاح، مع التكفل بحسن القيام به، والتدرج في ذلك.

٣- المداومة وعدم الانقطاع المتضمن للنماء والزيادة، مع الحفظ والرعاية.

وذلك في كل ما يتعلق بالإنسان من جوانبه المتعددة، الروح والقلب والعقل والجسد.

بعض أقوال أهل العلم في معنى التربية:

١- قال الأصفهاني – رحمه الله تعالى -: «الرب في الأصل من التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام»[(١)].

٢- قال البيضاوي: «التربية: هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا»[(٢)].

٣- قال المناوي – رحمه الله -: «التربية إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام»[(١)].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٤).

(٢) تفسير البيضاوي (١/٤٢).

٤- قال ابن حجر – رحمه الله -: «التربية وهي القيام على الشيء وإصلاحه»[٢].

٥- قال ابن عاشور – رحمه الله -: «التربية: كفالة الصبي وتدبير شئونه»[٣].

* * *

لفظ التربية في القرآن الكريم

ذكرت هذه اللفظة في القرآن الكريم في مواطن عدة وبصيغة مختلفة هي:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خص التربية بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما»[٤].

٢- وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾ [الشعراء: ١٨]، قال ابن كثير: «أي: أما أنت الذي

=

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (١/١٦٩).

(٢) فتح الباري (١/١٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١/٣٠٠٤).

(٤) تفسير القرطبي (٢٠/٢٠٧).

ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين؟»(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، الربانيون: جمع واحدهم: رباني، منسوب إلى الرب، والرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

٤- النماء والزيادة من معاني التربية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [بتشديد الباء المكسورة في قراءة]. وقول الرسول ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها، كما يرب أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل»(٢).

* * *

أساليب التربية في السنة النبوية

١- التربية بالقصة:

إن للقصة الهادفة أثرًا بالغًا في النفوس، ووقعًا بليغًا على أسماع المتعلمين، ومن هنا جاءت القصة كثيراً في القرآن، وأخبر تبارك وتعالى عن شأن كتابه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، رقم (١٣٢١)، ومسلم: كتاب الزكاة، رقم (١٦٨٤)، والفلو: المهر الصغير.

إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]، وأمر نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

لهذا فقد سلك النبي ﷺ هذا المنهج واستخدم هذا الأسلوب في مواطن متعددة، ومواقف كثيرة، فمنها: أن شاباً من أصحاب النبي ﷺ وهو خباب بن الأرت رضي الله عنه بلغ به الأذى من المشركين والشدة كل مبلغ، فأتى النبي ﷺ شاكيًا له ما أصابه فقال رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة – وقد لقينا من المشركين شدة – فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخالف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١).

فشجعهم وصبرهم ورباهم بهذه القصة العظيمة التي تصور حال صبر الأولين، وشدة بلائهم في سبيل الله عز وجل، ولأجل دينه.

وحفظت لنا السنة النبوية العديد من المواقف التي يحكي فيها النبي ﷺ قصة من القصص، ليصل إلى هدف تربوي نبيل. فمن ذلك: قصة

(١) رواه البخاري (٣٨٥٢).

الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وقصة الذي قتل مائة نفس، وقصة الأعمى والأبرص والأقرع، وقصة أصحاب الأخدود وقصة ماشطة بنت فرعون، وعجوز بنت إسرائيل، وقصة الذي زار أخًا له في الله فأرصد الله على طريقه ملكًا، وقصة البغي التي سقت كلبًا فدخلت الجنة، وقصة المرأة التي دخلت النار في هرة.

وغيرها من القصص الكثيرة، التي يعرف المتأمل فيها والمتمعن في خوافيها أنها تحمل كمًا هائلًا من الأهداف التربوية وتسعى لترسيخ المبادئ الإسلامية الحميدة، ونبذ المبادئ الشريرة الخبيثة.

ففي قصة المرأة التي دخلت النار في هرة، التربية على الرحمة بالحيوان، والعناية به، والتحذير من أذيته وحبسه، وأن ذلك موجب لدخول النار، والتعرض لغضب العزيز الجبار، ولولا هذه الطريقة القصصية لاحتاج من أراد النهي عن خلق أو الأمر بشيء إلى مزيد من العبارات وسيل من الكلمات لإبلاغ مراده فسبحان من أعطى رسوله جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا.

٢- التربية بالموعظة:

للموعظة أثرها البالغ في النفوس، ولم يكن المربي الأول صاحب الرسالة ﷺ يغيب عنه هذا الأمر أو يهمله، وصفه أحد أصحابه وهو

ابن مسعود ﷺ قائلًا: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[١].

ويحكي أحد أصحابه وهو العرباض بن سارية ﷺ عن موعظة وعظها إياهم النبي ﷺ، فيقول: وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إليها يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»[٢].

وحتى تترك الموعظة أثرها ينبغي أن تكون تخولًا، وألا تكون بصفة دائمة. فعن أبي وائل قال: «كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس فقال له أرجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»[٣].

(١) رواه البخاري (٦٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٧٦) واللفظ له، وابن ماجة (٤٢).

(٣) رواه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

والموعظة كلام ذو طابع خاص يشتمل على الترغيب والترهيب، والنفوس فيها اللين والقاسي، وقريب المنال وبعيده، وليست على سن واحد، ولا مستوية، فلابد من ضربها بسياط من الوعظ.

وفي ذلك ما جاء في حديث أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا» قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(١).

ومن أحاديث الرجاء والترغيب ما حدث به أبو ذر ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»، وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر(٢).

وكذلك ما حدث به أبو هريرة ﷺ قال: كنا قعودًا حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من أظهرنا، فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا للأنصار لبني النجار

(١) رواه البخاري (٤٦٢١) واللفظ له، ومسلم (٩٠١).
(٢) رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

فدرت به هل أجد له باباً فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة – والربيع الجدول – فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: «أبو هريرة؟» فقلت: نعم يا رسول الله، قال: «ما شأنك؟» قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: «يا أبا هريرة – وأعطاني نعليه – اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»[1].

والمتأمل في الواقع يلحظ أننا كثيراً ما نعتني بالترهيب ونركز عليه، وهو أمر مطلوب والنفوس تحتاج إليه، لكن لابد أن يضاف لذلك الترغيب، من خلال الترغيب في نعيم الجنة وثوابها، وسعادة الدنيا لمن استقام على طاعة الله، وذكر محاسن الإسلام وأثر تطبيقه على الناس، وقد استخدم القرآن الكريم هذا المسلك فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]،﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

---

(١) رواه مسلم (٣١).

٣- الإقناع:

الأصل أن يربى الناس على التسليم للأمور بالفعل وللنواهي بالترك، لكن بعض النفوس أحيانًا قد تكون شاردة تعيش حالة من التصميم حتى ولو كانت على خطأ، ولا يوقظ هذه النفوس إلا شيء من الإقناع، بردها للجادة، وتأكيد معاني الخير فيها.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، وُلد لي غلام أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما لونها؟» قال: حُمر. قال: «هل فيها من أورق؟»[1] قال: نعم، قال: «فأنى ذلك؟» قال: نزعه عرق. قال: «فلعل ابنك هذا نزعه»[2]. والملاحظ هنا في الإقناع النبوي الاستفادة من البيئة المحيطة، وكذا الاستفادة من البديهيات التي يؤمن بها المحاور، وهذا في حد ذاته من مؤكدات الإقناع والدواعي إلى قبول الكلام وعدم الحيد عنه.

ومثل ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة ﷺ قال: إن شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا قال: فجلس،

---

(١) أورق: هو الذي فيه سواد ليس بصاف، وقيل: الأغبر الذي في لونه بياض إلى سواد.

(٢) رواه البخاري (٢٦٣٣).

قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

إن النبي ﷺ في هذا الحديث لم يكتف بدرجة قليلة من الإقناع، بل مارس معه تأكيد الإقناع – إن صح التعبير – وكان يكفي قوله: أتحبه لأمك، لكنه عدد محارمه زيادة في الإقناع وإظهار شناعة الفعل ونكارته، ودلالة على أن ما يتصور أن نزني به من النساء لا تخلو من أن تكون أمًا لأحد أو بنتًا أو عمة أو خالة وهكذا.

ويخاطب النبي ﷺ هذا الشاب أمام أصحابه، وأدرك المربي المعلم ﷺ لديه جانبًا لم يدركه فيه أصحابه، فما هو؟ لقد جاء هذا الشاب يستأذن النبي ﷺ ولو كان قليل الورع عديم الديانة لم ير أنه بحاجة الاستئذان، بل كان سيمارس ما يريد سرًا، فأدرك ﷺ هذا الجانب

(١) رواه أحمد (٥/٢٥٦).

الخير فيه، فماذا كانت النتيجة؟ «فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» وختم له المربي الأول بالدعاء له، فما أجمل أن نقتدي به ﷺ في تربيته وتعاملاته.

وعند البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ الحسين بن علي ﷺ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه فقال ﷺ: «كخ، كخ» ليطرحها، ثم قال: «أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة؟»[1].

يا ترى كم كان عمر الحسين بن علي ﷺ وقتئذ؟ لقد مات النبي ﷺ وعمر الحسين لم يجاوز الثامنة؛ ومع ذلك خاطبه ﷺ خطاب الكبار، ومارس معه الإقناع؛ فكأنه يقول له: أنا لم أخرجها من فمك شحًا أو طمعًا أو أن فيها ضررًا عليك، لا... إن السبب في ذلك أنا لا نأكل الصدقة.

حين تجد مع ابنك صورة محرمة أو تجد عليه لباسًا بعيدًا عن روح الإسلام، فإن جلسة إقناع تؤكد فيها شخصية المسلم وتميزه كافية في التغيير بإذن الله، وعلى أقل تقدير كافية في هز القناعات السابقة وزعزعتها، وهذا سيجعل فرصة التخلي عنها في المستقبل أكبر بإذن الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (١٤٩١).

٤- استخدام الحوار والنقاش:

إن خير مثال على ذلك موقفه ﷺ مع الأنصار في غزوة حنين بعد قسمته للغنائم، فقد أعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم وترك الأنصار، فبلغة أنهم وجدوا في أنفسهم، فدعاهم ﷺ، وكان بينهم وبينه هذا الحوار الذي يرويه عبد الله بن زيد رضي الله عنه فيقول: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناهم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(١)، فحاورهم عليه الصلاة والسلام حتى أخرج مكنون نفوسهم، ثم أخرجه وأزاله بما وضع مكانه من تقوية الصلة بالله ورسوله، وطلب ما عنده.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

٥- الإغلاظ والعقوبة:

لقد كان من هديه ﷺ في التربية أن يغلظ العقوبة - أحيانًا - على من وقع في خطأ أو يعاقبه: فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبًا من يومئذ فقال: «أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة»[1].

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله رجل عن اللقطة فقال: «اعرف وكاءها - أو قال: وعاءها وعفاصها - ثم عرفها سنة، ثم استمتع بها، فإن جاء ربها فأدها إليه» قال: فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه - أو قال: احمر وجهه - فقال: «وما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر، فذرها حتى يلقاها ربها» قال: فضالة الغنم؟ قال: «لك أو لأخيك أو للذئب»[2].

إلا أن ذلك لم يكن هديه الراتب ﷺ فقد كان الرفق هو الهدي الراتب له ﷺ، لكن حين يقتضي المقام الإغلاظ فإنه ﷺ يغلظ، ويجعل كل خلق في مقامه المناسب له.

---

(١) رواه البخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦).

(٢) رواه البخاري (٩٠)، ومسلم (١٧٢٢).

وقد بوب البخاري – رحمه الله – في صحيحه على هذين الحديثين فقال: باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها غضبه ﷺ على من أكل بشماله، ودعاؤه عليه وعلى الرجل الذي لبس خاتم الذهب.

٦- الهجر:

استعمل النبي ﷺ أسلوب الهجر في مواقف مشهورة حين دعت الحاجة إليه، فحين تخلف كعب بن مالك ﷺ وصاحباه عن غزوة تبوك، هجرهم ﷺ وأصحابه، وأمر ألا يكلمهم أحد أكثر من شهر حتى تاب الله تبارك وتعالى عليهم، وهذا الأسلوب له أثر واضح على البعض، فإنه يحمله على التفكر في السبب الذي أفضى إلى هذا الهجران فيرجع وينتفع.

إلا أن استخدام هذا الأسلوب لم يكن هديًا دائمًا له ﷺ ومناط ذلك هو تحقيقه للمصلحة، فمتى كان في الهجر مصلحة وردع للمهجور شرع، ومتى كان فيه مفسدة وصد له أو زيادة في طغيانه حرم هجره.

٧- الحفاوة والترحيب وحسن الاستقبال:

أحيانًا نتعامل المربي أو من نقوم بتربيته على أننا أصحاب منة عليه وتفضل، لذا يرى البعض أنه لا حاجة إلى القيام بشيء من الترحيب به والحفاوة وحسن الاستقبال، بل وقد يعتبر البعض أن مجرد قبولنا له كافيًا في الإكرام، وربما يشعر الأب والمربي أن الحق له؛ فهو يطالب

المربي به. والحقيقة أن للأب والمربي حقًا كبيراً، لكن هذا الحق لن يتحقق إلا حين يعرف الولد والمتربي بذلك ويُغرس في قلبه إكرام أهل الفضل من خلال أساليب تربوية مشوقة وخطوات يقوم بها الأب والمربي.

وقد كان من يقابل النبي ﷺ – ولو لأول وهلة – يجد عنده من الحفاوة والترحيب وحسن الاستقبال ما يجعل النفوس تنجذب إليه وتأنس بحديثه وتُقبل بكليتها عليه.

جاء صفوان بن عسال رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم. فقال له النبي ﷺ: «مرحبًا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم على بعض حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب...»[1]، كيف سيكون أثر هذا الترحيب وتلك الحفاوة في نفس صفوان، هل تراه يزهد في طلب العلم بعد ذلك؟ كلا، بل يزداد نهمة وحرصًا وطلبًا له. ونرى الطالب أحيانا يرغب في المشاركة في منشط أو برنامج أو حلقة قرآن فيقابل بشيء من البرود، وعدم المبالاة (... لا بأس، أجلس مع زملائك...) دون أن يسمع كلمة ترحيب، بل ربما استقبل بالشروط المشددة (شروط القبول) التي ربما جعلته يعود أدراجه. إن مما يُذكر

---

(١) رواه ابن عبد البر في: جامع بيان العلم وفضله (١/١٥٥) وصحح إسناده المحقق (أبو الأشبال).

فيُشكر أن بعض دور التعليم والمناشط الخيرية جعلت حفل استقبال وترحيب بالأعضاء الجدد، الأمر الذي كان له أثر كبير في بعض الرغبة في النفوس وحملها على المواصلة والاستزادة.

ومن الأمثلة، ما رواه أبو رفاعة ﷺ قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتى بكرسي حسبت قوائمه حديدًا. قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها»[1].

عجيب والله! يوقف الخطبة، ويجلس للمتعلم يعلمه! أي تكريم فوق هذا وأي حفاوة، وكم سيصنع هذا الأسلوب من رغبة في نفس المتعلم والطالب! هل نستطيع نحن المعلمين أو المربين أن نقوم عن وجبة الإفطار – في المدرسة مثلًا – لنجيب الطالب عن مسألته؟ وحين يقطع علينا المتربي لذة النوم باتصال هاتفي لحل مشكلة، أو إجابة عن سؤال هل سيجد الترحيب منا وطيب النفس؟

لقد كان النبي ﷺ يستقبل الوفود ويحسن وفادتهم، ويتخذ لذلك لباسًا خاصًا وخطيبًا يخطب بين يديه إشعارًا منه بمزيد الاهتمام بهم؛ فلما أتى وفد عبد القيس رحب بهم ﷺ، فقال: «مرحبا بالقوم غير خزايا

(١) رواه مسلم (٨٧٦).

ولا ندامى...»[(١)]، ولما قدم الأشعريون أهل اليمن قال النبي ﷺ: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية»[(٢)].

وقدم وفد عبس على النبي ﷺ وكانوا تسعة، فقال النبي ﷺ: «أنا عاشركم». وعقد لهم لواءً وجعل شعارهم: يا عشرة[(٣)]. إن القلم ليعجز عن التعبير عن جمال هذا الخلق وأثره في النفوس، ولو أردنا أن نقف مع كل موقف من هذه المواقف لنتأمل فيه ونقف على الأثر الذي يحدثه في النفوس لطال بنا ذلك، وفيما ذكرنا كفاية والسنة النبوية حافلة ومليئة بذلك.

٨- الرفق والرحمة:

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد جعل النبي ﷺ الرفق سببًا من أسباب الكمال والنجاح؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٨٨).

(٣) رواه ابن عساكر من طريق ابن سعد عن الواقدي به (٣٥٩/٤٩).

يعطي على ما سواه»[١]. وفي حديث جرير بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «من حرم الرفق حرم الخير»[٢].

على هذه القاعدة العظيمة في التعامل كان تعامل النبي ﷺ مع أصحابه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم؛ فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها...»[٣]، فتأمل كيف ابتدأ النبي ﷺ بهذا الأسلوب اللطيف في التعليم، وكم سيكون له من أثر في نفس السامع وقبول لما يلقى عليه..!

٩- الثناء والتشجيع:

الثناء والتشجيع وتسليط الضوء على مكامن الخير في النفس البشرية والإشادة بها منهج نبوي كريم في التربية، يراد منه بعث النفس على الاستزادة، وإثارة النفوس الأخرى نحو الإبداع والمنافسة، وهو مشروط بأن يكون حقًا، وأن يؤمن من افتتان الممدوح، وأن يكون بالقدر الذي يحقق الهدف.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٣) أبو داود (٨)، وهو حديث حسن.

الحديث...»[١]، فهذا التشجيع منه صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة كفيل بأن يبعث أبا هريرة ﷺ على زيادة الحرص والمثابرة في طلب العلم والاستزادة من المعرفة.

ومن ذلك، ما جاء عن حذيفة ﷺ قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلًا أمينًا، فقال: «لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين، حق أمين» قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح – وفي رواية – فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»[٢].

وأيضًا، جاء عن أبي بن كعب ﷺ قال ﷺ: «أبا المنذر، أي آية معك من كتاب الله أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أبا المنذر، أي آية معك من كتاب الله أعظم؟» قال: قلت: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: «فضرب صدري، وقال: ليهن لك يا أبا المنذر العلم»[٣].

وعن أبي أيوب ﷺ أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار. قال: فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وفق أو لقد هدي» ثم يُقبل

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٣٨٠) عن حذيفة، ومسلم (٢٤١٩) بنحوه من حديث أنس.

(٣) رواه مسلم (٨١٠).

عليه النبي ﷺ ويقول: «كيف قلت؟...» الحديث[1]، انظر كم في هذه الأحاديث من تشجيع واهتمام ومزيد رعاية وعناية، وكم سيكون لها من الأثر على نفس السامع، وأثر في قبول الكلام الملقى عليه.

فيالله كم يبعث التشجيع في نفس المتعلم من حب للعلم وحث على الصبر فيه، والاستزادة منه، وكم يساعد في تسارع خطوات التربية نحو الإمام، وذلك على عكس ما تأتي به كثرة التأنيب والعتاب واللوم، أو السكوت عن الثناء عند كل نجاح وتفوق، وعدم المبالاة، فإن لذلك من الأثر السلبي على التربية ما لا يخفى على عاقل، فما أحوجنا إلى هذا الهدي النبوي.

١٠- التدرج ومراعاة الحال:

حين نرجع إلى المعنى اللغوي للتربية، نجد أن من معانيها النمو والزيادة والبدء بالصغار قبل الكبار، ومنه أيضًا: التدرج «فالتربية جهود تراكمية، يرفد بعضها بعضًا، والزمن واضح في قولهم: تربى، وتنشأ، وتثقف، فالتنشئة والتغذية والتثقيف لا تكون أبدًا طفرة ومرة واحدة، وإنما تتم على مراحل متتالية...»[2]؛ وذلك لأن «للجوانب التي

---

(١) رواه مسلم (١٣).

(٢) حول التربية والتعليم عبد الكريم بكار (ص: ١٠).

تتطلب التربية والإصلاح في النفس البشرية من الاتساع والتعدد والتنوع ما يجعلها في وقت وجهد أمرًا عسيرًا ومتعذرًا»[١].

ثم إن المتربين والمتعلمين ليسوا على درجة واحدة من الفهم والإدراك، ولا على درجة واحدة في الحرص والرغبة.

لذا كان التشريع الذي نزل من عند الحكيم الخبير على محمد ﷺ، يراعى التدرج وتمرين الناس على قبول الشرائع وترويضهم عليها شيئًا فشيئًا؛ فخاطب الناس ابتداءً بالمهم فالأهم، فكان التأكيد أولًا على تحقيق التوحيد، حتى إذا استقرت به نفوسهم أمروا بالفرائض ثم سائر الشرائع والأحكام. تقول عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا...» الحديث[٢].

وهكذا كان المنهج النبوي في التربية والتعليم يقوم على التدرج ومراعاة الحال.

روى ابن ماجة عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا

---

(١) معالم في المنهج النبوي، للدويش (مجلة البيان ١٢٥، ص: ٣٦).

(٢) رواه البخاري (٤٩٩٣).

القرآن، فازددنا به إيمانًا»[1]. كم ترانا نستعجل أحيانًا في تعليم القرآن (حفظه) للأبناء والتلاميذ قبل تثبيت الإيمان في نفوسهم، كم رأينا ممن قارب إتمام القرآن حفظًا فانقطع وتغير سلوكه؛ لأن بناء الإيمان في قلبه لم يتزامن مع الحفظ، إني بهذا الكلام أعزز دور التربية والبناء الإيماني قبل الحفظ المجرد، ولا أقلل من أهمية الحفظ. إن الاهتمام ببناء الإيمان وترسيخه هو الأصل الذي يبنى عليه غيره فإذا عدم الأصل أو كان هشًا سقط ما بني عليه. فليكن همنا الكيف لا الكم، ولنصبر فإن العجلة لا تثمر بناءً باسقًا.

١١- الاستفادة من الأحداث:

كل يوم تطلع فيه الشمس تتجدد أحداث وتمر حوادث، وعلى المعلم اللبيب والمربي الحكيم أن يفيد من هذه الحوادث والأحداث في توجيه التعليم وتأكيد التربية كما هو حال النبي الكريم ﷺ.

فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بالسوق، داخلًا من بعض العالية[2]، والناس كنفتيه (أي جانبيه) فمر بجدي ميت أسك[3]، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» قالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال:

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة، باب: الإيمان، حديث (٦١).

(٢) قرى ظاهر المدينة.

(٣) أي صغير الأذنين.

«أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله، لو كان حيًا كان هذا أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: «فوالله! للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[(١)].

كم يتكرر علينا مثل هذا الحادث أو قريبًا منه ثم لا نوليه أدنى اهتمام، لنغرس في نفوس المتعلمين هوان الدنيا، وحقارتها عند الله ﷻ.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي؛ فإذا بامرأة من السبي تبتغي، إذ وجدت صبيًا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[(٢)].

كان يمكن أن يذهب هذا الحديث دون تعليق، لكن النبي الحكيم ﷺ أفاد منه أي إفادة؛ لإظهار عظم رحمة الله ورأفته بالعباد.

وهكذا ينبغي لنا، وحين نطيل التأمل في مثل هذا الحادث فإننا سنجد فيه فرصة للإفادة في جوانب أخرى؛ فكما أشار النبي ﷺ فيه إلى سعة رحمة الله؛ فإننا نجد فيه فرصة للتذكير بحق الوالدين، وتقلب

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٤).

الدنيا بأهلها فبينما كانوا سادة جعلتهم المعصية عبيدًا مملوكين وسبايا مأسورين.

وعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنا جلوسًا ليلة مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، فافعلوا»(١).

كم نرى القمر ليلة البدر؟ كم نراه ونحن مع أولادنا أو مع طلابنا، ثم لا نغتنمها فرصة لنذكر برؤية المؤمنين لربهم في الجنة؟ وكم يمكن أن نفيد من رؤية القمر مثلًا بالتذكير بالصلاة وعظمتها، وأنها نور (فالصلاة نور) والتذكير بقيمة الجمال ومحبة الناس له؟ ولن نعدم توجيهًا لو أعملنا أذهاننا، فيكون في هذه الظاهرة من الفوائد التي تبعث نفس المتعلم على الانتباه وإحضار ذهنه ما هو خير معين للسير نحو الإمام في التربية والتعليم.

عن البراء بن عازب ﷺ قال: أُهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال ﷺ: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤).

(٢) رواه مسلم (٢٤٦٨).

قد يقول قائل: إن هذا خبر غيب جاء النبي ﷺ بطريق الوحي وليس لنا إلى ذلك سبيل، فنقول: نعم، ولكن لنا سبيل أخرى، فنستطيع أن نذكر عند رؤية جمال الدنيا وحسنها نعيم الجنة وثوابها، وبنار الدنيا وعذابها عذاب الآخرة: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءا من حر جهنم»(١).

١٢- التبسط وإزالة الحواجز:

النفوس البشرية ضعيفة تحوي في داخلها مشاعر وعواطف، يجذبها المعروف، وتحب الأنس والتواضع، وتكره التعالي والتكلف، وتأنف الجفاء والعبوس وتقطيب الجبين. والتبسط وإزالة الحواجز بين المربي والمتربي كفيل بإيجاد بيئة مطمئنة تساعد في تسارع التعليم، وتطور التربية، واتساع مساحتها بشكل واضح، والناظر في هدي النبي ﷺ يجد ذلك واضحًا، ويرى الأثر الكبير الذي يحدثه هذا الأسلوب في النفوس.

كان الرجل يأتي إلى مجلس رسول الله ﷺ لا يحجبه عنه حاجب، يقول جرير بن عبد الله البجلي ﷺ: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»(٢). وكان ﷺ ربما أتاه الرجل لا يعرفه وقد أخذه الفزع يظن أنه يقدم على الملوك، فيهون النبي ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٥).

عليه ذلك؛ فعن ابن مسعود ﷺ قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترتعد فرائصه فقال له ﷺ: «هون عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[(١)].

وعن عثمان بن عفان ﷺ قال في خطبة له: «إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير»[(٢)].

وعن أنس ﷺ قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»[(٣)].

ومن ذلك ما روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن غنم، من معاذ بن جبل ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج بالناس قبل غزوة تبوك؛ فلما أن أصبح صلى بالناس صلاة الصبح، ثم إن الناس ركبوا؛ فلما أن طلعت الشمس نعس الناس على أثر الدلجة، ولزم معاذ رسول الله ﷺ يتلو أثره... ثم إن رسول الله كشف عنه قناعه، فالتفت فإذا ليس من الجيش رجل أدنى إليه من معاذ فناداه، فقال: «يا معاذ» قال: لبيك يا نبي الله، قال: «ادن، دونك» فدنا منه حتى لصقت راحلتاهما إحداهما بالأخرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت أحسب الناس منا كمكانهم من البعد» فقال معاذ: يا نبي الله، نعس

---

(١) ابن ماجة (٣٣١٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٥٠٤) وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٣) رواه مسلم (٢١٥٠).

الناس، فتفرقت بهم ركابهم ترتع وتسير، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا كنت ناعسا». فلما رأى معاذ بشرى رسول الله ﷺ وخلوته له قال: يا رسول الله، ائذن لي أسألك عن كلمة قد أمرضتني وأسقمتني وأحزنتني، فقال نبي الله ﷺ: «سلني عما شئت...» الحديث(١).

بالتأكيد إن هذا السؤال عند معاذ كان حبيسًا في نفسه منذ زمن، حتى إذا رأى انبساط النبي ﷺ ورأى البشر في محياه استدعاه ذلك إلى سؤال النبي ﷺ، فكم في نفوس أبنائنا وطلابنا من أسئلة وإشكالات ومشكلات لو وجدت نفسًا بسيطة وقريبة لا يجد المتربي أو المتعلم أدنى كلفة في التعامل معها، أو نفسًا منبسطة تجذب الناس إليها لا نبعثت لذكرها وإخراج مكنونها، وحين لا يجد المتربون والمتعلمون هذه النفوس، فلا شك أنهم سيبحثون عن نفوس أخرى تقبل ما عندهم من مكنونات، لكن قد تكون هذه النفوس شريرة خبيثة تأخذهم نحو المجهول والعياذ بالله.

عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه: كنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس، فيتحدث أصحابه يذكرون الجاهلية، ينشدون الشعر ويضحكون، ويبتسم رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٤٥).

(٢) رواه النسائي، شرح السيوطي (٣/٨٠-٨١).

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس»(١).

وقد مرعي بن يوسف الكرمي – رحمه الله – في كلامه عن المزاح: «... اعلم – أيدك الله – أنه لا باس بالمزاح الخالي عن سفساف الأمور وعن مخالطة السفلة ومزاحمتهم، بل بين الإخوان أهل الصفاء بما لا أذى فيه ولا ضرر، ولا غيبة ولا شين في عرض أو دين، بل وربما لو قيل: يُندب، لم يبعد، إذا كان قاصدًا به حسن العشرة والتواضع للإخوان، والانبساط معهم، ورفع الحشمة بينهم، من غير استهزاء أو إخلال بمروءة أو استنقاص بأحد منهم»(٢).

١٣– اغتنامه ﷺ الفرصة في تربية أصحابه:

تلك وسيلة مهمة جدًا من وسائل التربية وهي تحتاج إلى فطنة عالية وتستلزم انتباهًا كبيرًا من المربي حتى لا تمر عليه فرصة إلا واستغلها. لقد كان ﷺ لا يرى شيئًا يستحق التعليق أو التنبيه إلا وعلق عليه وأشار إلى خوافيه، وكان النبي ﷺ يستغل الفرص والمواقف لينصح أصحابه، وكان لذلك الأثر الكبير في نفوسهم، فإن النصيحة أو التوجيه من خلال موقف حديث أمرٌ لا ينسى، بل ينطبع في الذاكرة.

---

(١) ابن عساكر (٣٧/٤)، والفوائد لتمام الرازي (١٠٥٢) وهو في المعجم الكبير والأوسط بلفظ: من أفكه الناس مع الصبي، ولا يصح.

(٢) غذاء الأرواح بالمحادثة، والمزاح، لمرعي الكرمي (ص: ٢٨).

كما أن ترك النصيحة في وقتها ربما تجعل من تقوم بتربيته يظن أن ما فعله صحيحًا.

وها هو ﷺ يتجول في السوق يومًا فمر على صبرة طعام (يعني كومة من الطعام) فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله (يقصد أصابه المطر) قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني»(١).

وفي هذا الحديث انتهز ﷺ هذه الفرصة في تعليم هذا الصحابي وتعليم جميع المسلمين من التجار حرمة الغش في البيع وإخفاء عيب السلعة، وبيان أن من غش المسلمين فليس منهم.

وها هو ﷺ يخرج على أصحابه عند الصلاة وكأنه رآهم غير معتدلين في الصف، فماذا فعل؟ هل فوت تلك الفرصة في تعليم أصحابه؟ على الرغم من أن الصلاة قد أقيمت؛ فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم» فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٤٣٠).

فهذه نصيحة عملية منه ﷺ لأصحابه من خلال موقف شاهده وعند أداء فريضة فلعلهم لا ينسون تلك النصيحة أبدًا فكلما وقفوا للصلاة تذكروها.

فعلى كل والد ألا يفوت فرصة في النصح لأولاده أو من يقوم بتربيتهم محتجًا بأنهم مازالوا صغارًا، بل ينتهز كل فرصة وموقف ليوجههم به ويشردهم فتنبطع نصائحه في أذهانهم ولا ينسونها.

١٤- ومن هديه ﷺ في التربية أنه كان يبدأ بنفسه في فعل ما يأمر الناس به.:

وهو أمر له فعل السحر في القلوب، فإنك إن فعلت ما تأمر به الناس وكنت أول الفاعلين له شجعت الجميع على فعل الأمر، وعلموا أن المسألة ليست بالصعبة، وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى علموا بتواضع معلمهم ورئيسهم وأنه لا يتكبر عن فعل شيء يأمرهم به، فإنك ترى وتسمع عن تعليق يصدر كثيراً جدًا من العاملين تجاه رئيسهم أنه يصدر أوامر فقط، وأنه لا يشعر بهم، ولا يفهم أن هذا أمر صعب عليهم ولا يحتمل، ولو كان معهم في هذا الأمر وتلك الصعوبة التي يفرضها عليهم لما قال هذا الكلام، ولما ألزمهم بفعل هذا العمل، إنه في البرج العالي يأمر وينهي ولا يشعر بشعور الآخرين، أما رسول الله ﷺ فكان يبادر ويسبق أصحابه في فعل ما يأمرهم به.

لقد كان ﷺ في الحرب مثلًا في أوائل الصفوف، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحتمون به إذا حمي القتال في المعركة، هو أمرهم بالقتال ورغبهم فيه وفي بذل نفوسهم رخيصة لله – سبحانه وتعالى – ثم هو في الصفوف الأولى يقاتل معهم.

وفي حفر الخندق حول المدينة شارك ﷺ أصحابه في حفر الخندق بنفسه وهو يربط على بطنه حجرًا من الجوع ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

والصحابة يردون عليه ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدا

بالله عليكم لو ذهب مسؤول اليوم في زيارة موقع للعمل ساعة من الزمان وسلم على بعض العمال، واكتفى بأن يضرب على أكتافهم ويقول لهم: أحسنتم، اجتهدوا، لو فعل ذلك لعدوه شيئًا كبيرًا وتواضعًا منه واهتمامًا بالعاملين وتشجيعًا لهم، فكيف برسول البشرية ﷺ وهو لا يكتفي بأن يكون معهم طوال الوقت، بل يعمل معهم بيده ويحطم الحجارة بنفسه، فأي تأثير يفعله هذا الفعل في نفوسهم، وهو يعمل معهم ﷺ. ينبغي ألا ينسى أي مرب قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٤٤]،. وقديمًا قال القائل: «عمل واحد يؤثر في ألف، وأقوال ألف قد لا تؤثر في واحد».

١٥- ومن هديه ﷺ في تربية أصحابه أنه كان يتفقد أحوالهم وعباداتهم:

وذلك له أثر في النفوس حسن، فإن السؤال عن الأحوال يشعر من أمامك أنك مهتم به وبشئونه وسلامته وصلاح أحواله.

ولقد كان ﷺ يعرف أصحابه كلهم ويتفقد أحوالهم ويسأل عن غائبهم ويتعهدهم جميعًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا، (لقد كان سؤال النبي ﷺ لأصحابه بعد أن أنهى من صلاة الفجر واستدار لأصحابه) قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن أطعم منكم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال النبي ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»(١).

في هذا الحديث نراه ﷺ قد حفز أصحابه على العمل الصالح بطريقة عملية مبتكرة دون أن يلوم أحدًا منهم على تقصيره أو يسأله ماذا فعل بالضبط، لكنه كان يسأل سؤالًا عامًا، من فعل كذا وكذا؟ فلما اجتمعن في أبي بكر كانت المفاجأة في النهاية أن جائزته هي الجنة،

(١) رواه مسلم (١٠٢٨).

وفي ذلك حافز رهيب للجميع على العمل لنيل نفس الجائزة وهو ما يحتاج إلى جهد وعمل ومواظبة على الخير، كما أن كل واحد من الحاضرين سوف يوبخ نفسه ويلومها على تقصيرها فيكون في ذلك حث لهم جميعًا على الخير.

هذه قصة يرويها لنا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﵁ تثبت لنا كيف كان ﷺ يسأل ويعرف ويهتم بأخبار أصحابه جميعًا، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن سعد في طبقاته وابن هشام في سرته، عن جابر بن عبد الله ﵁ قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ (يعني رجع من الغزو) جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ (كان ﷺ يذهب في طول الجيش وعرضه يتفقد أصحابه) فقال: «مالك يا جابر؟» قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا، قال: «أنخه» وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك» ففعلت، فأخذه فنسخه بها نخسات، ثم قال: «اركب»، فركبت، فخرج، والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة (يعني يسابقها وقد تغيرت حالته من البطء إلى السرعة والنشاط)، وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟» قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك، قال: «لا، ولكن بعنيه» قلت: فثمنيه يا رسول الله (يطلب منه تقدير ثمنه) قال: «آخذه بدرهم» قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله، قال: «فبدرهمين» قلت: لا، فلم

يـزل يرفـع لي رسـول الله ﷺ في ثمنـه حـتى بلـغ الأوقيـة فقلـت: أفقـد رضيت يا رسول الله، قال: «نعم» قلت: فهو لك، قال: قد أخذته، ثم قال: يا جابر، هل تزوجت بعد؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: «أثيبًا أم بكرًا؟» قلت: لا بل ثيبًا، قال: «أفلا جارية تلاعبها» قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد وترك لي بناتًا سبعًا، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال: «أصبت إن شاء الله، أما إنا لو قد جئنا صرارًا (وصرار مكان بأطراف المدينة) أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها» (يعني أنها إذا سمعت بمقدمهم أصلحت وسائدها ومنزلها واستعدت) فقتل: والله يا رسول الله، ما لنا من نمارق قال: «إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملًا كيسًا» قال جابر: فلما جئنا صرارا أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحر وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا المدينة. قال جابر: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريبًا منه، فخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: «ما هذا؟» فدعين له فقال: «يا ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك» ودعا بلالًا فقال له: «اذهب بجابر فاعطه أوقية» فذهب معه فأعطاني أوقية وزادني شيئًا يسيرًا، فوالله ما زال ينمو عندي ويرى مكانه من بيتنا.

من هذه القصة ينبغي أن يتعلم كل مرب كيف يهتم بأصحابه وبأحوالهم، فالنبي ﷺ بالرغم من كثرة مشاغله إلا أنه يعرف من أحوال جابر الكثير، ومع ذلك ضاحكه وواساه بطريقة لطيفة، وحدثه في أمر زواجه وداعبه بمسألة شراء جملة منه، ثم انتهزها فرصة لمساعدته فأعطاه الجمل والمال في آن واحد.

ينبغي أن يفهم المربي أنه ليس مجرد مصدر للمعلومات البحتة التي يلقيها على من يتعلمون منه فقط، لكنه شخص يهتم بكل أحوالهم وشئونهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية فكل ذلك يمثل وحدة واحدة لا تتجزأ.

* * *

الخاتمة

هذه بعض الأساليب النبوية في التربية والتعليم، أحببت الإشارة إليها والوقوف معها لما لها من أثر في بناء النفس وتربيتها على الفضيلة والكمال، والرقي بها نحو الأمام، لقد جمعتها وأردت أن أذكر بها نفسي وإخواني حتى نعمل بقوله: ﴿لَقد كان لَكُم فِي رسولِ اللَّهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ﴾، لعلي أكون قد أسهمت من خلال هذا الجمع وهذه الكتابة في تدعيم لبنات الإصلاح المنشود، وترسيخ قواعد التعليم الصحيح.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا محبة النبي ﷺ وأتباعه وشفاعته، وأن يجعلنا ممن يرد حوضه ويشرب من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا، اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه: أخوكم: أبو عبد الرحمن

سليمان بن جاسر بن عبد الكريم الجاسر

المراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: كتب السنة.

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم.

٣- مسند الإمام أحمد.

٤- مسند الترمذي.

٥- سنن أبي داود.

٦- سنن ابن ماجة.

٧- فتح النسائي.

٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري.

ثالثًا: كتب التفسير:

١- تفسير القرطبي.

٢- تفسير ابن كثير.

٣- تفسير البيضاوي.

رابعًا: كتب عامة:

١- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

٢- حول التربية، د. عبد الكريم بكار.

٣- غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح، لمرعى الكرمي.

الفهرس